

الشعب والحكومة في الإصلاح

بقلم حسن الشريف

نلاحظ بغبطة وسرور أن الاهتمام بالمسائل الاجتماعية وبالإصلاح الاجتماعي قد ازداد في مصر ازديادا محسوسا منذ أنشأت الحكومة وزارة للشؤون الاجتماعية . وهذا دليل على أن في أمتنا غمراؤ خيرة كثيرة ، تنشط إلى العمل الصالح متى نهت إليه .

ولكن التنبيه إلى العمل الصالح والتنبه إلى وجوبه لا يكفيان . بل يجب فهم هذا العمل أولا ، ثم تنظيمه وتوزيعه نائيا ، ثم تنسيق الجهود القائمة به أخيرا .

هذه الطريقة نستطيع أن نعمل عملا منتجا وأن نصل إلى غاية معينة . أما الرغبة في الإصلاح كيفما اتفق ، وتراحم الجهود حيث يجب أن تتوزع ، وتوزعها حيث يجب أن تتجمع ، واختلاف أساليب التفكير فيما يجب وفيما لا يجب ، وتباين وجهات النظر فيما يحسن أن نبدأ به وفيما يحسن أن ننتهي إليه ، كل هذه فوضى تم على أن فينا حافزا للعمل ، ولكنها على كل حال فوضى لا يستقيم بها أمر ، ومحال أن يتحقق معها إصلاح صحيح .

فنحن إذ نشد الإصلاح الاجتماعي ونعمل له ، يجب أن نعرف أمراضنا الاجتماعية قبل لكل شيء ، وأن نعرف وسائل علاجها بعد ذلك . فإذا ما وثقنا من أننا أحسننا تشخيص الداء وأحسننا وصف الدواء ، بقي علينا أن نعرف كيف نتعاون حكومة وشعبا - على حمل أعباء الإصلاح الاجتماعي في هذه البلاد .

لقد ألفنا في مصر أن نعتمد على الحكومة في كل شيء ، وأن نحمل عليها جميع الأعباء . فهى المطالبة بتعليم الشعب وتربيته ، وبإنشاء الملاجئ والمستشفيات ، وبترقية الزراعة وإيجاد الصناعات ، وتوفير العمل للعاطلين والوظائف للتعامين ، وهى المطالبة أيضا بإبطال البدع ومقاومة الخرافات والقضاء على العادات السيئة والأخلاق المقوتة ، وبغير ذلك مما يجب أن يعتبر بعضه أو أكثره من واجبات الأمة قبل أن يكون من واجبات الحكومة ، أو على الأقل من واجبات الأمة والحكومة متعاونتين .

ولكن استقراء تاريخ الحضارة الحديثة يدلنا على أن الإصلاحات الاجتماعية إنما قامت بها الشعوب قبل أن تتولاها الحكومات ، بل يدلنا على أن عمل الحكومات في تلك الإصلاحات لم يزد على الرعاية والرقابة والتوجيه .

والواقع أنه لا يمكن لحكومة أن تسبق الشعب إلى الإحساس بحاجاته، وإنما هي تستمد منه قوتها، وتسترشد برغباته في إصلاحاتها، وتجد الحافز على الإصلاح في تلك الحاجات والرغبات. وليس من طبائع الأشياء أن تنشط حكومة مادام الشعب راكدا، ولا أن تركد حكومة إذا نشط الشعب وألح في طلب التغيير والإصلاح.

والشعب لا ينشط إلا إذا انشر النور بين طبقاته، وأصبح ذا وجدان مرهف يدله على حقيقة نقائصه ومشكلاته الاجتماعية. وهو عندئذ لا يبعث الحكومة على الإصلاح فقط، وإنما ينبعث أفرادها بأنفسهم على هذا الإصلاح.

والحقيقة أن فضيلة السبق إلى التفكير والابتكار initiative، يلزم أن تكون وأن تظل فضيلة شعبية. فالشعب يبدأ بالإصلاح صغيرا ويسير فيه شوطا، ثم تجئ الحكومة قستأنس بالخطى التي سبقت إليه فتأخذه وتستخدم قواها للتوسع فيه. وهذا هو الذي حدث بالفعل في البلاد المتقدمة. فإن ميزة الابتكار في جميع تلك البلاد كانت للشعوب قبل أن تكون للحكومات.

لقد كان التعليم المدرسى والجامعى في إنجلترا إلى وقت قريب العهد مجهودا شعبيا خالصا وليس هذا بالغريب في الأمم الديمقراطية، لأن الشعب الذى يضطلع بتبعية الحكم يجب أن يضطلع بتبعات الإصلاح.

ولا أظنى أنبىء القراء بجديد إذا فلتك لهم أن حكومة الولايات المتحدة بأمرىكالا توجد فيها وزارة معارف وأن التعليم هناك تشرف على أموره مصلحة في وزارة الداخلية. وليس معنى هذا أن الحكومة الأمريكية لا تعنى بشؤون التعليم، وإنما معناه أنها وجدت من نشاط الشعب في تأسيس المدارس والجامعات ما أغناها عن إنشاء وزارة للتعليم. وهكذا يتعاون الشعب والحكومة في هذا الميدان بحيث يبقى نصيب الشعب في هذا التعاون أكبر من نصيب الحكومة بكثير، والدليل على ذلك أن مدارس الحكومة وجامعاتها هناك هي دون مدارس الشعب وجامعاته في العدد وفي نفاعة البناء وتأثير المعامل واختيار المدرسين.

ولقد قام الشعب الانجلىزى بحركة التعليم بما كان له من جمعيات خيرية، ثم جاءت الحكومة فتوجت هذا المجهود الشعبى بقانون للتعليم الإلزامى صدر فى سنة ١٨٧٠ ولكنها لم تثنى وزارة للمعارف إلا منذ ثلاثة وأربعين عاما فقط.

وما التعليم مع هذا سوى واحد من الإصلاحات التى تعاونت فيها الحكومة والشعب، وكان فضل السبق إليه للشعب لا للحكومة. أما شؤون الصحة والتعاون الصناعى والزراعى وإبواء اليتامى والعجزة وإنشاء المؤسسات الخيرية فقد قام بها الشعب المستنير فى أوروبا

وأمریکا ، ثم ساهمت الحكومات في توسيعها وتنمية مشروعاتها . مثال ذلك أن المستشفيات كانت حتى عهد قريب في إنجلترا من عمل الشعب ومجهوده لا دخل للحكومة فيها . ولا تزال المصحات والمستشفيات الأهلية تفضل مستشفيات الحكومة وتمتاز عليها سخامة وسعة وأناثا واطباء ومعامل .

وكنا نعرف أن الحكومة البريطانية تأخذ على عاتقها تأمين العمال من التعطل والمرض والشيخوخة ، وتأمين الأم من نفقات الولادة وتكاليفها ، وهذه الأنواع من التأمين وغيرها تقتضى من الحكومة مبالغ طائلة تحسب بمئات الملايين من الجنيهات . ولكن يحسن ألا ننسى أن هذه التأمينات كلها قد قامت بها من قبل جمعيات الصداقة Friendly Societies وهى جمعيات أسسها العمال والفقراء متضامنين متعاونين على تفريغ الضائقة التى قد تحمل بواحد منهم فى يوم من الأيام .

ولإنشاء الملاجئ كان وما يزال من عمل الشعب . وتلك بيوت برناردو Barnardo Homes فى إنجلترا واسكتلندا والمستعمرات البريطانية الحرة مفخرة من مقار الشعب الانجليزى ومثال للبر الاجتماعى الذى يمارسه أفراد هذا الشعب . وبيوت برناردو كما هو معروف ملاجئ تربي وتعلم وتستخدم كل من ياجأ اليها من اليتامى وأبناء الفقراء .

فى الحكومات العصرية نزعتان متعارضتان : نزعة تميل نحو التدخل الحكومى فى أعمال إصلاحية كانت إلى وقت قريب مما لا يتبالى به الحكومة أو مما تركه للشعب يقوم به وحده . فقد كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لا تعرف شيئاً من التأمينات الاجتماعية للعمال والفقراء . ولكن الرئيس روزفيلت فيما يسمى مشروع "الصفقة الجديدة New Deal" قد كلف حكومته نحو ستة مليارات جنيه (جنيه لا دولار) انفتت كلها فى أنواع من أعمال التأمين والإسعاف .

وهناك حكومات تمنح الأفراد مكافآت مالية تشجعهم على التراجع والتنازل . وهناك حكومات تبني منازل للعمال وتشارك الشركات الصناعية فى أعمالها ولعل أغرب مثال لذلك هو اشتراك حكومة السويد فى صنع الخمر وبيعها ، حتى أنها جعلت الساقى (Bar man) فى الحانات موظفاً من موظفى الدولة . وهو بهذه الصفة لا يهيمه أكثر زبائنه أم قلوا ، فلا يقدم الخمر لخاصر ولا يعطى منها لسكران ولا يبيع زجاجة مغلقة الا ببطاقة رسمية . فالتدخل الحكومى هناك يقصد منه التقييد المنظم لتجارة ثبث أن ضررها أكبر من نفعها .

وهذا الميل نحو التدخل الحكومى تقول به الأحزاب الاشتراكية وتستند فيه على أن التطور الصناعى اذا كان قد نجح فى زيادة الانتاج فهو قد عجز عن زيادة الاستهلاك وأن الأزمات الاقتصادية المتكررة تنشأ من تلك الزيادة فى الانتاج مع هذا العجز فى الاستهلاك .

على أننا إذا وجدنا هذا النوع من التفكير الاجتماعى متطرفا من ناحية ، فإننا نجد ما يقابله فى الزعة الأخرى . فهوربرت سبنسر يذهب الى أن من واجب الحكومات أن تقتصر مهمتها على تحقيق أمن الدولة وسلامة الأمة أى على تنظيم الجيش للدفاع ضد عدو أجنبي ، وتنظيم القضاء والبوليس للدفاع ضد عدو داخل . أما بعد هذا فليس على الحكومة من واجب ، وإنما على الشعب وحده أن يقوم بأمور الصحة والتعليم وغير ذلك .

رأيان على طرفى نقيض . أما الحقيقة فى اعتقادى . فهى كامنة بين هذين الطرفين . فان تدخل الحكومة ليس محمودا فى كل شىء ، واقتصارها على الأمن العام للدولة والأمة لا تعززه مشاهدات الحاضر ولا مشاهدات الماضى . فالدفاع ضد العدو الخارجى يحتاج الى جيش ، والجيش — كما يقول نابليون — يمشى بجمده ، أى يمشى متى صح وشيع . ومن هنا نرى أن الصحة جزء مهم من أمن الدولة وسلامتها . وكذلك فان الحكومة الديمقراطية لا يمكنها أن تعيش ولا أن تنتج فى شعب جاهل لا يفهمها ، لأن جهل الشعب يجعله لا يستوعب أعمالها ويعرضها لقلقل وانهكيات مستمرة ، ومن ذلك نفهم أن تعليم الشعب شرط لأمن الدولة . وعند ما تتقدم الصناعات الآلية والميكانيكية فى أمة ، يحدث التمثل بين العمال الزراعيين والصناعيين فتقع الحكومة فى مشكلة اجتماعية تحتاج الى الحل السريع . وعندئذ يدعو الأمن العام الى تحاشى مساوئ هذه المشكلة بكيفالات وإعانات تمنحها الدولة للعمال المتعطلين .

وهكذا نرى أن علاج مشكلات الاصلاح والانشاء والتعمير عمل لا تستغنى الحكومة فيه عن الشعب ولا يستغنى الشعب عن الحكومة ، بل يجب أن يظل موضوعا للتعاون الدائم بينهما .

ونحن فى مصر نعرف أمثلة كثيرة لاصلاحات عديدة قام بها الشعب وسبق الحكومة اليها ، ولكنها أثمرت ثمرتها الطيبة عندما تعاون عليها الشعب مع الحكومة ، فكان للشعب فيها فضل الحافز والعامل اذ أحس الحاجة اليها فجعل يدرس مشروعاتها ويخطط أسسها ثم أخذ فى انشائها والسير فيها حتى تحققت ونمت ، وعندئذ تدخات الحكومة فأمدت هذه المشروعات بقوتها المالية فضاغت فوائدها وعممت ثمراتها .

هذه مثلا جامعة فؤاد الأول ، أنشأها الشعب المصرى عند ما أحس حاجة الى الثقافة العالية . ولقد سارت هذه الجامعة مدة طويلة لا تجد غير رعاية الجمهور سندا لها . ولكن سيرها كان يتم بالبطء والضعف الى أن جاءت الحكومة وتعاونت مع الشعب . وهنا وجدت الجامعة المعونة الكبرى فبرزت مضطلة بكل أعباء الثقافة العصرية .

وتاريخ تلك الجامعة هو تاريخ جهد شعبي لا يخفى مغزاه على أحد من المصريين .

وأبرز من هذا المثل مثل المدارس الأهلية التي أنشأها الشعب في أنحاء البلاد لتعميم التعليم . فإلى سنة ١٩٢٤ لم يكن لوزارة المعارف مدرسة ثانوية للبنات ، أما الشعب فكان له عدد من هذه المدارس . وعند ما نذكر الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية العروة الوثقى وجمعية المساعي المشكورة والجمعيات الخيرية القبطية تمثل أمام أعيننا جهود الشعب المصرى فى سبيل نشر التعليم ، تلك الجهود التي عاوتها وزارة المعارف بالإعانات المالية الكريمة وبالإشراف اليقظ وبالتوجيه السليم .

فسألة التعليم فى مصر كانت وستبقى مسألة التعاون بين الشعب والحكومة .

ونحن حين نسمع أن فى جامعة فؤاد الأول زهاء ثلاثمائة فناة مصرية يتعلمن فى كلياتها المختلفة ، يجب أن نذكر بفخر أن لمجهود الشعب الفضل الأول فى هذا الانتصار الثقافى وأن فضل الحكومة إنما يأتى فى المكان الثانى . وبعبارة أخرى يجب أن نقول أن التعاون بين الشعب والحكومة هنا قد أثمر أحسن الثمرات .

والأزهر . لقد كان هذا المعهد العظيم يعيش بمجهودات الشعب وحدها أى بالأوقاف التي حبسها عليه رجال البر فى الأزمان الماضية . والشعب المصرى مفضون على البرحبح للإحسان ، كما تدل على ذلك المساجد والكائس فى أنحاء مصر .

ولكن العصر الحديث قد استحدث حاجات جديدة تحتاج الى بر من نوع جديد . فالمدينة العصرية التي تزدهم بالأطفال المتعلمين هى غير القرية التي كان الصبي فيها يعمل عمل أبية فى الزراعة أو فى رعاية الماشية . وهذا الصبي يحس اليوم حاجات لم يكن يحسها الذين من قبله ومن هذه الحاجات ما يجب أن يستجاب حتى لا يشب الطفل شاعرا بجرمانه من معرفة القراءة والكتابة والحساب والمسليات البريئة المفيدة . كذلك المستشفيات والمستوصفات والملاجئ قد أصبحت تنادى أهل البر وأصدقاء الإنسانية ، لأن أخطار المدينة وأمراضها وأمراض الريف تتطلب الإكثار من تلك المبرات . ومثل هذا يقال أيضا فى المدارس التي بتنا فى حاجة الى المئات بل الآلاف منها ، وفى الشبان الذين يحتاجون الى أندية رياضية تحول بينهم وبين المفاسد .

هذه المنشآت وغيرها هى من مبتكرات الشعوب فى البلاد المتقدمة لم تتدخل الحكومات فى أمرها الا معاونة أو منظمة .

وكما تقدمت المشكلات الاجتماعية ازدادت الحاجة الى اطالة التفكير والتدبر فى اختيار النوع الأنسب من الإحسان وإيثار لون من البر على لون آخر . والروية فى مسألة الإحسان خير من التصرع والارتجال . وهنا يطيب لى أن أذكر اسم روكفلر الثرى الامريكى العظيم .

فقد حبس ملايين من الجزيئات على أعمال البر ولكنه ترك تعيين نوعها الى لجنة خاصة عرف
أنها أدري منه بقيمة الخدمات التي تعود على الإنسانية من لون من ألوان البر دون غيره .
أما هنا في مصر فمعظم البر متجه الى إنشاء المساجد والزوايا . وقد تكون القرية عندنا في جهة
ما محتاجة الى مسجد ، وقد تكون في جهة أخرى حافلة بالمساجد ولكنها تخالو من مستشفى
أو ملجأ أو مستوصف . ففى هذه الحالة نحتاج الى دقة التمييز وحسن الاختيار .

والثرى في أمريكا لا يعتمد على نفسه كل الاعتماد في تعيين نوع الإحسان الذى يريد
أن يتفق فيه ما يجبس من أموال ، بل هو يستشير ويردد الرأى ويدرس الموضوع .

وفى جميع المدارس الأهلية الانجليزية مكافآت (Scholarships) ينتفع بها التلاميذ
الأذكياء إذ تتحمل المدرسة تكاليف دراستهم العالية فى إحدى الجامعات ، وقد تزيد على ذلك
إمدادهم بالمعونة المالية إذا ضاق بهم أهلهم أو عجزوا عن الإنفاق عليهم ، وهذا برنكاد
لا نعرفه فى مصر ، وجعلنا به يحرم الأمة الانتفاع بكاء أو نبوغ الكثيرين من أبناءها الفقراء ،
ولست أعرف من كنوز الأمة الطبيعية ما يساوى النبوغ الخلام الذى يقبردون أن تتاح له
فرصة النماء .

فى كل هذه الأشياء : أى فى إنشاء الأندية لشباب المدن ، وتأسيس المدارس ،
ورصد المكافآت المالية لأبناء الفقراء الأذكياء ، وإنشاء الملاجى لليتامى والعاجزين ،
وإقامة المستشفيات للرضى والمصابين ، يجب أن يتعاون الشعب مع الحكومة تعاوناً وثيقاً
يكفل خير النتائج وأحسن الثمرات ، والشعب حين يتجه الاتجاه الاجتماعى الصحيح لا يتنبه
فقط الى واجباته بل يتنبه أيضاً الى حقوقه ، لأنه إذا كان سيسخر بماله لإقامة مستشفى
شعبى مثلاً ، فانه سيقف موقف الرقيب الدقيق على ميزانية الدولة حتى إذا وجد باباً من
أبواب الاسراف ألح فى إقفاله ، إذ لا معنى لأن يتبرع الشعب بماله حراً مختاراً وهو يجد
التبذير فى أموال الدولة التى جبتها من الضرائب .

على أن السخاء والتبرع والإحسان ليست مقصورة على بذل المال ، فانه هممة الشباب
عند ما تتوجه الى الخير تكون نوعاً من أنواع البر والإحسان ، واتمد استطاع عدد كبير
من الطلبة أن يتكروا المنشئات الاقتصادية والحريرية ولم يكن لديهم من سند يستندون إليه
غير النشاط ، ثم جاءت الحكومة فتوجت جهودهم كما رأينا فى مشروع القرش وكما نرجو
أن نرى فى مشروعات أخرى .